بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدبّر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتى لِرَدْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذِّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ[1] فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾

أى : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) هى شجرة الزقوم التى قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) ﴾ [الدخان] ، وقال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] .

عن علمه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإلمام بالشيء من كُلّ نواحيه .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى المثل (حُط فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً ، فقال : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[1] (٨٨)﴾ [الإسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحدّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التى تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفىّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نردُّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيِّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] .

تُسيِّر الكون ما رأينا في الكون شذوذاً عن الناموس العام ؛ لأن الأمر الميكانيكي لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التي تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكَّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفىء النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهم آية من آياته في خَرْق الناموس ، فمكَّنهم من إشعال النار ومكَّنَهم من إبراهيم حتى ألقوْه في النار ، ورأوْهُ في وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّيَ رسوله ويُؤْنسه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ..﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

الإحاطة تقتضي العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القدرة ؛ لأنك قد تعلم شيئاً

(١) البرد : خلاف الحر . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال (وسلاماً) لأذى إبراهيم بردها . [تفسير ابن كثير ٣/١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفى ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقات متعددة ، فقد يراد بها الخَلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَـٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ(1) الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾[الناس]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ(2) عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الزخرف]

وكما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس فى الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر فى مكة .

---

(1) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ١/٢١١] .
(2) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشى ، وحبيب بن عمير الثقفى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٣٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهى إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهى إحاطة حصار لا يُفلتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون فى أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

حتى إن عمر ـ رضى الله عنه ـ الذى جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أىّ جَمْع هذا ؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا(١) وهذه تسلية لرسول الله وتبشير

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال فى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت فى عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج ، وهم فى حصار لن يُفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام فى المنام الذى رآه : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ رؤيتى . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هى الرؤيا التى جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء[1] على أنها الرؤيا التى ثبتتْ فى أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] أى : حادثة الإسراء والمعراج .

---

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانىء والحسن البصرى وقتادة ، أورد السيوطى آثارهم فى الدر المنثور (٥/٣٠٨ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) اختيار ابن جرير الطبرى لهذا الرأى قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أى : فى الرؤيا والشجرة .

وبعضهم[١] رأى أنها الرُّؤيا التى قال الله فيها : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح]

فقد وعد رسولَ الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام فى هذا العام ، ولكن مُنعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .

ثم بيَّن الحق - تبارك وتعالى - لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو فى طريق عودته إلى المدينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[٢] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[٣] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا فى الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

---

(١) قاله ابن عباس فى رواية عنه قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فردَّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٠١١/٥) : « فى هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة » .

(٢) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نَحْره . [القاموس القويم ٣٢/٢] .

(٣) لو تزيلوا : أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٤] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن أُنوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله[1] .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ في حَلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبيةْ الطويل .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد . ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التى جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكأنِّى أنظر إلى مصارعِ القوم » . وأخذ يومِىء إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان »[1] .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لى : بالله عليك ، مَنِ الذى يستطيع أنْ يتحكَّم فى معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال ليُحدد الأماكن التى سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء[2] قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان فى الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر[3] ، هذه أحداث حدثتْ فى المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول ـ وهو الإسراء والمعراج ـ هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) .

(٣) أمْر الرسول يوم بدر لم يَرِد فى تأويل هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضعفوه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث فى تفسيره (٣ /٤٩) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عنَّ له :

فكَبَّر للرُّؤْيَا وهَاشَ[1] فُؤَادُهُ   وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من دقَّة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم رَبٌّ ، فاختار الرؤيا ؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز فى الزمن الذى اختُصر لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس »[2] .

(١) هش للشىء وهاش : سُرَّ به وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشش].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٣/٣) .

ولو كانوا يشكُّون فى الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهمْ على وقت هذه الرحلة التى كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها فى ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث فى هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون فى مسألة وعى الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنسانى لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هى المدَّة التى يستغرقها المنام .

فى حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن - إذن - فى الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل الإدراك فى الإنسان والتى تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرَّتْ سريعة حيث لا يوجد فى الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهى طايرة) وهذا يدل على السرعة فى الفعل ؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشىء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواى ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه ؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكان الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم فى بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى فى ساحتنا إلا صادق الإيمان قوىُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذى سيحكم حركة الحياة فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق فى إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التى ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق »[(١)] هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزَّبَد الذى زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ..(٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كانت الفتنة فى الإسراء كامنة فى زمن حدوثه ، فهى فى الشجرة كامنَةَ فى أنها تخرج فى أصل الجحيم ، فى قَعْر جهنم ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدِّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدِّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة فى جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول[1] : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن فى الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شىء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كونى فى أصل الجحيم ، فتكون فى أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التى قالت للنار : كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزِّبْعَرى حينما سمع قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، وإنَّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون فى النار شجر ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : غذيت بالنار ، ومنها خلقت ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] قال : يشبهها بذلك .

معى[1] ، أى : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلْعَن وهى الطعام الذى سيأكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] والأثيم لا شكَّ ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للآكل وجعلها للشجرة ؟

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوّف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد ، أما والله لئن أمكننا فيها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠)﴾ [الإسراء] . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣١٠) لابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لأن العربي دَرَجَ على أن كل شيء ضار ملعون ، أي : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذي يلعنها ، فهي ملعونة من آكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها[1] .

ومن الإشكالات التي أثارتها هذه الآية في العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتي عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما في الآية فالمشبَّه مجهول لنا ؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منَّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذي جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربِّي فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث في أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

(١) ذكره أبو يحى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ٢٣٨ طبعة ١٩٨٥ م ـ دار الصابوني .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملكة العربية أو التذوّق الكافى لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملكة واللغة كصناعة فقط .

الملكة اللغوية تفاعل واختمار للغة فى الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة ـ خاصة على كبَر ـ فهى مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال[1] :

يَغُطُّ غَطيطَ البكْر شُدَّ خِنَاقُه ليقتُلَنى والمرءُ ليسَ بقتَّالِ

أيقتُلنى وَ المشرْفىُّ[2] مُضَاجِعى وَمسنُونَة زُرْقٍ كأنْيَابِ أغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ أن يُشبِّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبِّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلَّفنا جميع رسّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتخيَّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

---

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلى .

(٢) سيف مشرفىٌّ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طَلْع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لَتصوَّرناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته ، وأنْ تذهب النفس فى تصوُّر بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدى هذا التشبيه فى الآية مَا لا يُؤدِّيه غيره ، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلىِّ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : نُخوِّفهم بأنْ يتعرَّضوا للعقوبات التى تعرَّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوِّف إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذى يُخوِّف ابنه عاقبة الإهمال ، ويُذكِّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشِّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة فى قوله تعالى ، فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّوَاظ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشيء سيحدث فى المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوَّفْتهم وذكّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىٍّ ملكاً عليهم[1] ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبىٍّ ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أُبىٍّ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها . فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوله على عبد الله بن أُبىٍّ والذى قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومَنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أُبىٍّ التاج ، ونُملِّكه علينا » .

وأنْ يحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنَّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

أى : تذكَّروا أن الحسد قديم قِدمَ وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكَّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخَّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعةٍ وخضوعٍ لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التى تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم فى موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ .. ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون فى قَوْل الحق سبحانه فى القرآن الذى أخذوا منه حجتهم : ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح فى أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبِلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة[1] الذى يزهو عليهم ويتباهى

---

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٨٩/٣) .

بأنه صالح للاختيار فى العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح فى منزلة أعلى من الملائكة وأصبح فى حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى فى الطاعة فإن الأعلى أوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ استكبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى واستكبر ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] ، ومرة أخرى يقول : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم ملكة ، والمتأمل فى هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآنى ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] و ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

صحيح أن فى الأولى إثباتاً وفى الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) فى الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة فى كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزِّه المتكلم سبحانه أن يكون فى كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هى تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

كأنه همَّ أنْ يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أىّ شىء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك بأنك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن فى حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف فى عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة فى الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التى لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطئ .

ومعنى : ﴿ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) ﴾ [الإسراء] يعني : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر] سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من طين . والماء إذا خُلِط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه في قوالب . فإذا ما تُرِك الطين حتى يجفّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صَلْصَالاً كالفخَّار ، يعني يُحدث رنَّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان